إسحاق لاؤور:
خيبة أمل المثقف الطليعي

قدمه وساجله : محمد حمزة غنايم

« ... إذا كانت هناك، حقاً، أزمة لدى ما يسمى بـ «جيل الدولة الموسع» ، فإنها مرتبطة بالأزمة التي تأخذ بخناق الدولة، وهي أزمة عميقة غير مسبوقة، وتجد تعبيراً عنها قبل كل شيء في «الروح الشريرة التي ترف على وجه اللغة»، الروح الشريرة للماضي الفلسطيني، إيماءة اليد الطاردة لبن غوريون، المصادرة والسلب، ثرثرات الأيديولوجيين، تثمين الصمت، كابوس الغابات، التبويل على البقايا – كل هذه الاشياء لم تقدر على المكبوت. لقد عاد ويعود. الأدب يتعين عليه أن يتبصر الماضي من خلال عيون صادقة، عميقاً عميقاً داخل الظلام...»

إسحاق لاؤور، من مقالته الشهيرة «اللغة الممزقة» (١٩٩٤)؛
وقد نشرت ترجمتها العربية في «الكرمل»، ٥٠، شتاء ١٩٩٧

تعود بدايات الشاعر الإسرائيلي إسحاق لاؤور إلى مرحلة كانت فيها «إسرائيل الثانية» مولعة بالنظر إلى المرآة، وهي عادة مكتسبة تطورت مع الوقت إلى نوع من «النرجسية» العامة، اختتمت بها فترة الستينات، في السياسة، والاقتصاد، والثقافة والأدب. في تلك الأيام (التي وصفها الناقد العبري حنان حيڤر بأنها مرحلة «الركض على الجسر» في الدولة العبرية، وكانت هذه خارجة لتوها من عدوان جديد على العرب) غطت الغطرسة وجنون العظمة مساحات واسعة من الإنتاج الثقافي الأدبي العبري (حيڤر: أدب مكتوب هنا، ص ٧٠، بالعبرية)، كانت قد تطورت في جانبها القوموي إلى نوع من الشوفينية العنصرية، إلى أن جاءت «حركة أرض إسرائيل الكبرى» التي أعقبت عدوان ٥/٦/٦٧، تجسيداً عملياً له.
منذ تلك الحرب، «حصل» لاؤور (المعروف أنه رفض الخدمة العسكرية في الأراضي الفلسطينية المحتلة

منذ العام ١٩٦٧) وغيرُه من الإسرائيليين المعارضين للحرب على عدد من الحروب الإضافية، بينها «محدلة» ٧٣، واجتياح لبنان، والعدوان على المقاومة الفلسطينية في حزيران ٨٢، والانتفاضة الشعبية في الأراضي الفلسطينية، وما خلفته من آثار أو تغييرات سياسية أو سوسيوثقافية، ظهرت بوضوح في الشارعين الثقافي والسياسي الإسرائيليين، في مرحلة لاحقة من مطلع التسعينات. كان كل شيء قد تم التعبير عنه في الأدب، وبضمنه الاحتجاج على مختلف مظاهر التسيب والتحلل والانحدار اللاأخلاقية، التي بدأ جدل واسع حولها في الشارع الإسرائيلي بمساهمات واضحة من شعراء معروفين لا يوحدهم مذهب أو جيل، أبرزهم نتان زاخ، الشاعر العبري الأوضح من الناحية السياسية، وأقوت يشورون، الذي تميز بصوت نقدي حاد في القصيدة، طال مختلف أشكال القدسية واستباح «تابوهات» كثيرة في عالمي السياسة والادب.

في السنوات التي سبقت الحرب ارتفع صوت شعري سياسي مغاير، مهد الأرض لنمو هذا التعبير الشعري الحاد والمشروع بنظر البعض، والذي لم يكن مقصوراً على جيل معين؛ فقد شمل الشاعرين الراحلين أقوت يشورون وداڤيد أڤيدان (مات وحيداً في عزّ شبابه)، ونتان زاخ، إسحاق لاؤور، مئير ڤيزلتير وداليا رابيكوڤتش وغيرهم. وقف التعبير الشعري العاطفي والوحداني – الذي برز بشكل أو بآخر في الشعر الإسرائيلي في الستينات والسبعينات، وظل مواظباً على عادته هذه بعد احتلال ٦٧ وصدمة ٧٣ – أمام واقع شرس، كان يتهيأ للرد عليه بطريقته، واعياً إلى أي حد يبتعد في ذلك، وكيف أنه يؤسس لتقليد «شاذ» في السياق الشعري والثقافي العام، هو شعر الاحتجاج، الذي بدا للجمهور العريض كذلك بالفعل.

لم يقرأ أحد من قبل هذا النوع من القصائد ولا هذه اللغة الشعرية الجديدة، التي بدأت تتسلل وتهيمن في قصائد وابداعات الشعراء الشباب، ابناء الكيان الجديد. كان الشاعر نتان زاخ يعبّر عن طبيعة هذه التحولات في مجوعته الشعرية «شمالية شرقية» (١٩٧٩)، فيتساءل في قصيدته «إلى اولاد نصحوا بألا..»: «هل يجب في هذه اللحظة الحرجة / أن اكتب قصيدة سياسية / أم أن الأفضل أن أهدأ / وأكتب قصيدة حب؟»؛ كذلك لم تعتد «الشعرية اليهودية» من قبل مثل هذه الحدة التي عبّر عنها شاعر مثل مئير ڤيزلتير، في قصيدته «حديث إلى راديو»، المكتوبة في عز العدوان على لبنان (١٩٨٢): «براغ، ولد صغير بجانب بيروت!». غمرت موجة من قصائد وكتب الاحتجاج الساحة، وفي أعقاب الحرب صدرت مجموعتان شعريتان ضمتا قصائد بهذه الروح، الأولى «ولا غاية للمعارك والقتل» (١٩٨٣) و «عبور الحدود، قصائد من حرب لبنان» (١٩٨٣). خيل أن الطليعة الشعرية الشابة تقوم بصنع انقلابها الأول على وثنيتها ذاتها أولاً، وتبدي محاولات حقيقية لفهم نفسها ثانياً، وسط هذا الخليط الكبير من الكلمات والتساؤلات وحالات الضيق، التي اعترت الجميع. لم تعمّر هذه الحالة طويلاً على الساحة أو في الوعي الثقافي العام، فتلاشت سريعاً. تقلص رد الفعل المباشر على الحرب في حجمه ولم يعد متصلاً بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، الذي تعد الحرب في لبنان جزءاً من نتيجته المباشرة (حيڤر: ١٢١).

دخل إسحاق لاؤور إلى هذا الواقع صاخباً منذ البداية، كما يتجلى ذلك في مجموعته الاولى «سَفر» (١٩٨٢): «القصيدة عن لينا حسن نابلسي ابنة السابعة عشرة / النابلسية التي لاذت من وجه الجندي المسلح / كما لو من أمام الدب / وتمكنت من تسلق الدرج حتى الطابق الخامس / وأصيبت برصاصة واحدة مباشرة في الرأس / سقطت وماتت على الدرج / لا معنى لكتابة مثل هذه القصيدة / فما يحتاجه

الأولاد من صف لينا ليس شعراً».

كانت الطريق التي قطعها لاؤور منذ بداية مشواره الأدبي – الثقافي – السياسي «نموذجية» لمثقف طليعي بدأ سيرته الأدبية مسيَّساً، وحط به المطاف – حالياً، على الأقل – فوق الجدار، ولعله، من على جداره القسري، يبحث عن تفسيرات منطقية أو عقلانية لما آل اليه حال اليسار الإسرائيلي «الحقيقي» لا الصهيوني هذه الأيام، في واقع «غير اعتيادي» لا يضحك فيه الناس من أنفسهم بنفس القدر الذي يضحكون فيه من الآخرين!

ولد لاؤور في سنة ١٩٤٨ في «برديس حنه» جنوب غرب وادي عاره، وفي مطلع السبعينات انتقل للعيش نهائياً في منطقة تل أبيب. نشر ست مجموعات شعرية، منها «الجسد وحدُه يتذكر»، «قصائد في مرج الحديد»، و «ليلة في فندق غريب». له روايتان هما «شَعب، طعام الملوك» و «مع روحي جثتي»، وكتاب نقدي في الأدب العبري المعاصر بعنوان «نكتبك، ايها الوطن» ومسرحية بعنوان «افرايم يعود إلى الجيش». في هذه الأيام أصدر لاؤور كتابين، الأول مجموعة شعرية بعنوان «كالعدم»، وأخرى قصصية بعنوان «في الربيع بعد الاحتياطي». يعمل لاؤور أستاذا للمسرح، وناقداً أدبياً في صحيفة «هآرتس».

|

سأعترف من البداية أن محاورة لاؤور كانت عملاً مضنياً نوعاً ما! فقد جئته في فترة هو «ممنوع فيها من الكتابة في السياسة» في صحيفته «هآرتس»، على حد قوله لي في هذا الحوار بقدر كبير من الإنشداد والتوتر، إذ كنت كمن أمسك به يرتكب «فعلة سيئة» وأنا أسأله عن أسباب عزوفه عن السياسة في هذه الأيام، وهو الناقد السياسي الحاد، واكتفائه بما يكتبه من مراجعات للكتب في صفحات الأدب من تلك الصحيفة. أحسست أنني أسدد نحو وجع قديم لعله يتقاسمه مع كثيرين مثله من مجايليه، ممن طوتهم «ثورة ما بعد الحداثة» هنا منذ مطلع التسعينات، فانخرسوا بهذا الشكل أو ذاك، ولكنه الوجع الذي لا يمكن إلا لواحد فقط أن يحسه على حقيقته: صاحبه. قطعت بهذا السؤال حالة من الغبطة داهمت لاؤور في صالون بيته الجديد في «هود هشارون» إلى الغرب من كفر قاسم، وهو يعدد أمامي مزايا العيش على مرمى حجر من «الخط الأخضر» في مسكنه الجديد (انتقل إليه قبل عام تقريباً)، دون أن يعبر الحدود ويصير مستوطناً على سبيل المثال، ليكتشف قيمة الطبيعة في جعل العيش في هذا الوطن أمراً ممكناً. رغم كل شيء. رغم الاحتلال، والاستيطان، والصراع كله!

وفي ذلك، فإن لاؤور يمثل جيلاً كاملاً من المثقفين اليهود في إسرائيل، أفراده في مثل عمر الكيان الذي ولدوا وترعرعوا وناضلوا من داخله، وعندما خُيِّل أنه أوان «القطاف»، جاءتهم الخيبات واحدة تلو الأخرى، وصدمهم الواقع المرير المتشكل رغم إرادتهم، وقد كانت الخيبة قَوية لدى البعض (قد يكون لاؤور أبرزهم) إلى حد جعله يبدو متشككاً إزاء ما قاله أو كتبه أو آمن به كل الوقت. وفي ضوء هذا التدهور الكبير على الصعيدين الخاص والعام، في دولة تسعى للدخول إلى ألفية جديدة بنفس المصطلحات والمفاهيم، تبدو محاورة واحد من أبناء هذا الجيل محاولة لإجمال تفاصيل المشهد الطليعي الغائب عن الساحة الآن، قبل أن تجد طريقها إلى مكانها «الطبيعي» والأنسب: داخل إطار أسود، فوق الجدار؛ جدار الصهيونية، بالطبع!

| كيف يقطع شاب يهودي في مقتبل العمر طريقه إلى اليسار في إسرائيل؟ يبدو أنك حصلت على «شروط مثالية»، عندما فعلت ذلك في أواخر الستينات؟

|| كان ذلك بعد تسريحي من الجيش في العام ١٩٦٩. وقد تم بطريقة بدت لي مفهومة ضمناً تقريباً: وصلت إلى الجامعة ووجدت طريقي إلى اليسار الجديد. هكذا، بكل بساطة! بعد ذلك «تعمدت» بالسجن العسكري لرفضي الخدمة في المناطق المحتلة (١٩٧٢)، إذ كنت أول رافض علني للخدمة العسكرية هناك. بعد حرب ٧٣ تواصل نشاطي من داخل الجامعة في صفوف اليسار الإسرائيلي. كانت مجموعة «سيَّح» (محادثة) قد تلاشت، ليجد بعضنا طريقه ليس بالضبط إلى الحزب الشيوعي بل «الجبهة»، وهو ما حدث لي شخصياً، فقد كنت مقرباً منهم بهذا الشكل أو ذاك أثناء دراستي الجامعية. استمر ذلك في مطلع الثمانينات من داخل الجامعة أيضاً، ضمن اطر سياسية مختلفة مثل «لجنة التضامن مع جامعة بير زيت». وعندما نشبت حرب لبنان بادرت إلى جانب عدد من الأصدقاء إلى تأسيس «اللجنة ضد الحرب في لبنان»، التي ضمت ممثلين عن مختلف شرائح المجتمع، وبرز فيها حضور المثقفين بوضوح. انتهت الحرب، وانتهى نشاطي السياسي المكثف بعد ذلك بسنوات. في منتصف الثمانينات..

| كنت تناضل ضد الاحتلال وليس ضد نظام الحكم مثلاً.. ألم تكن لديك مثل عليا حول أنظمة حكم أكثر انسانية أو تقدمية؟

|| مؤكد أنني حلمت كما غيري بنظام مختلف، لكنني لا أستطيع اليوم الدخول في شرح ما رغبت به آنذاك. كنت متأثراً باليسار الجديد، الذي كان بمثابة عالمي كله..

| جئت بعد موجة الثورة الطلابية في أواخر الستينات. يخيل أنكم بدأتم بعد أن تلاشى وهجها. هل كنتم تردون بذلك على ما جنح إليه المجتمع الإسرائيلي من عنصرية وتطرف قومي وعدوان؟

|| ... لا يوجد ما هو أسوأ من القومية، أية قومية. أنظر إلى أين وصلنا جراء ذلك!

| انشغلتم بالتذكر كثيراً في مطلع التسعينات. هذه الأيام يخيل أنكم طويتم صفحة التذكر والرغبة بمعرفة خبايا الذاكرة الجماعية.. وما حدث في البداية..

|| كانت تلك «هيصة عامة» وصلت ذروتها في «احتفالات الخمسين». الناس يحبون مثل هذه المناسبات. يحبون المهرجانات، والدول أيضاً، فهي تحصل على عدة فرص جيدة للقيام ببعض الخطوات. بنظري، لا توجد لذلك معان مفضلة أو خاصة. لست واثقا بأن ثقافتنا تشتغل بالتذكر هذه الأيام. كانت هناك بعض المؤشرات واختفت. خذ مثلاً ظاهرة «المؤرخين الجدد»، فهي تسير إلى الوراء.

| هل ذلك يعني أن المزاج العام، وبضمنه الثقافي، لم يعد راغباً بالاشتغال بالماضي؟

|| كانت هناك مرحلة كهذه وانتهت. امتدت من منتصف الثمانينات إلى مطلع التسعينات. كانت إسرائيل خارجة من حرب مضنية في لبنان، وسرعان ما دخلت في حرب الانتفاضة وحكم اليمين المتواصل وإحباط الانتلجنسيا اليسارية في ضوء عجزها

عن هزم اليمين. هذه المرحلة خلقت نوعاً من الراديكالية داخل المثقفين اليهود، يبدو أن البعض كان بحاجة إليه، لذلك سرعان ما وجد له بيتاً دافئاً، ونما وترعرع. كان اليسار الصهيوني قد استعاد الحكم في مطلع التسعينات، وقد وقفت حكومة رابين آنذاك أمام أزمة سياسية عميقة، جعلتها بحاجة حتى لأشخاص مثلي، فكم بالحري من هم أقل يسارية مني. لا يمكن أن نفهم ذلك خارج سياق الأزمة السياسية التي دخلتها. صحيح أن ظاهرة «المؤرخين الجدد» الواسعة والمشاهد المختلفة التي رأيناها.. كل ذلك امتلك قوة دفع وآلية خاصة به.. لكنني لست واثقاً أننا إزاء انقلاب أوجد بالفعل شيئاً حقيقياً..

| لعل المؤسسة لعبت دوراً في «إجهاض» المشروع، الذي بدأ في الجامعة وانتهى إليها على ما يبدو. خذ أبرز رموز هذا التيار، موريس، راز، كمرلنغ، سيجف، وغيرهم.. كلهم استوعبوا في الجامعات وهيئات تحرير الصحف المهمة.. ويتقاضون معاشات منها..

|| لا أظن الأمر كذلك بالضبط. سأوفر على نفسي إبداء الرأي فيما إذا كانت المؤسسة راغبة أم لا. لا أعرف هل توجد صلة آلية بين الأمرين. حاولت وصف عملية بدأت لأسباب كثيرة من حرب لبنان فصاعداً، تخللتها شكوك وزعزعة للمفاهيم التي نشأ عليها الإسرائيلي العادي. تطورت هذه الشكوك إلى خلخلة عميقة أثناء الانتفاضة، وأصبحت أكثر خطورة في ضوء إحباط الانتلجنسيا اليسارية من عجزها عن استبدال حكم الليكود المتواصل سنوات طويلة، دون أن تؤثر الأحداث على هذه الحقيقة. وعندما حدث الانقلاب المضاد بين السنوات ١٩٩٢ – ١٩٩٦، وقفت السلطة أمام أزمة حقيقية في التعامل مع اليمين ومعارضة الحل مع الفلسطينيين. فجأة أصبحت هذه السلطة بحاجة لليسار، وبدأنا نقرأ ابحاثاً في الجامعات لا في الصحف، وإذا توفرت في الصحف، فهي لم تجد الطريقة للوصول إلى المدارس. لم تتسرب إلى الإعلام الرسمي العام. كانت هناك حاجة لتجنيد دعم للسلطة حتى في صفوف اليسار! حتى أن أشخاصاً مثلي بهذا الشكل أو ذاك طوروا علاقات بالسلطة وإعلامها الرسمي، في عملية تجند عام في صالح التغيير..

| لعلها، رغم كل شيء، محاولة لتدجينكم.. حدث ذلك باستمرار، في علاقة المثقف بالسلطة؟!

|| الفرق بيننا أنك تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية فقط، وأنك تقول إن هناك سلطة وأناساً يعيشون في داخلها. لا أوافق على ذلك!

| لديّ اسبابي، وهي كثيرة. فالثقافة التي تنتجونها تبدو لكثيرين – وأنا منهم – مصطنعة إلى حد كبير. وأنها حقاً سلطة وأناس تابعون وثقافة مجندة في خدمة «المشروع الكبير». لماذا لا تكون هذه هي الحقيقة، حتى اليوم، رغم ما يُقال عن التغيير؟

|| كل من يعتقد أن كل شيء مصطنع لا يقرأ ما يحدث هنا بالضبط. نحن في داخل تغيير. دوامة التغيير. ولأن هذه العملية لم تنته – ولعلها لم تبدأ بالحجم المطلوب – يمكنك القول إن بعض جوانب هذا التغيير لم تكن عميقة بما يكفي، أو شجاعة بما يكفي. صحيح أن بعض «المؤرخين الجدد» توجهوا للعمل في الجامعة، لكن الحقيقة أن كل شيء

بدأ هناك، باستثناء كتابي النقدي عن الأدب العبري.

| ولكنكم بدأتم قبل سنوات نوعاً من الجدل العام حول القضية...

|| عندما تسرب هذا الجدل خارج الحرم الجامعي لم يمكث طويلاً لدى الرأي العام. اليوم، لا يوجد جدل عام في مسألة النكبة عندنا. وصل الأمر حتى نقطة معينة وتوقف. ما يسمى دولة إسرائيل ١٩٩٩ أو ٢٠٠٠، أي أيهود باراك وجماعته الحاكمة. لا يهتمون حقاً بهذه المسألة. كل من فكر أن باراك في السلطة سيكون مثل رابين في السلطة، وسيؤيد فتح الباب على اليسار قليلاً، لأنه بحاجة لشرعية من اليسار، كما كان الحال مع رابين.. فقد أخطأ.. إنه لا يحتاج هذه الشرعية من اليسار.

| عندما كان رابين في الحكم هاجمته بمقالك عن «اللغة الممزقة»، وقد كان ذلك في أوج عملية تسوية سلمية مع الفلسطينيين..

|| وماذا إذن؟ فكرت آنذاك – ولأسفي الشديد أنني لم أخطىء – أن هذه العملية كانت منذ بدايتها محكومة بالفشل..

| لماذا لا تقول ذلك في «زمن باراك»؟

|| ولكنني لا أملك مكاناً أكتب فيه!

| في صحيفتك، «هآرتس»، التي تحتل مقعد الليبرالي في المسرح السياسي العام لديكم..

|| هذا هو الفرق بين ما كان في زمن رابين وما يجري اليوم! آنذاك أمكنني أن أكتب، أما اليوم فلا يمكنني كتابة هذه الأقوال. لا يدعونني أفعل! أنا ممنوع من الكتابة في السياسة. مقالات كهذه لن تنشر. كنت مرة من كُتّاب الصفحات السياسية. أما اليوم فأكتب في الأدب بسبب الراتب. لو قدمت مقالاً في السياسة، فسيردونه في الحال. هذا جزء مما يوجد في دولة إسرائيل. ليست هذه هي النقطة المركزية.

| لماذا؟

|| هذه ليست قضية للمجادلة. لا ينشرون! لذلك أعود إلى التأكيد على ما كتبته في أوج العملية في العام ٩٤ ضمن مقالي المشار إليه وهو أنني فكرت بأن مشروع إسرائيل الكبير هو تقسيم ما تبقى من فلسطين إلى قطع صغيرة، وهو ما أعتقده اليوم أيضاً. الهدف هو إقامة نظام كانتونات في الأراضي الفلسطينية، وهذا بالضبط ما يسعون إليه. ما يحاولونه في الواقع. وذلك يزعجني، لأنه سيطيل الحرب مائة عام اخرى. كل من فكر أن دولتين ليس أمراً راديكالياً، بل حلٌ وسط لم يفهم إلى أي حد لن تكون دولة إسرائيل مستعدة للتنازل عما طلب منها أن تتنازل عنه، الضفة الغربية وقطاع غزة، حتى هذا المطلب – وهو ما اعتقدته في الثمانينات – لن يتم عبر عملية ماكياج بل بعملية جراحية. حتى الضفة الغربية ستكون عملية جراحية وليس عملية تجميل! سيناء كانت عملية تجميل. لم يتطلب الامر القطع باللحم الحي. هنا الأمر مختلف تماماً. أين تبدأ الحكاية؟ أين مصادرها؟ إذا قلت اليوم «دولتان»، فذلك يعني انك ستسأل: «ولكن، مع جميع

المستوطنات؟»، أي أن الواقع الحالي لا يترك للفلسطينيين شيئاً. لا النصف ولا الربع ولا نصف الثلاثة أرباع من فلسطين! لذلك لا أعتقد أن من يتحدث اليوم عن دولتين لشعبين لا يقصد خوض صراع غير راديكالي!

| لدى قطاعات واسعة من اليسار الإسرائيلي يبدو الحديث عن الفصل محكوماً بدوافع أخرى، بعضها عنصري..

|| لم أستخدم كلمة فصل مرة واحدة. أعرف أن من يتحدث عن الفصل إنما يتحدث عن «الأبرتهايد». أنا لا أعني ذلك بالطبع.

| دائماً كنتم مولعين بالتسميات الكبيرة. وبالتاريخ. وفي ضوء ما تقول، ما الذي يتغير، الآن: الواقع، أم الأسماء؟

|| عندما كنت طفلاً في برديس حنه، أطلقوا على منطقتنا اسم «الشومرون». عندما سألت أبي عنها قال لي إنها لم تعد عندنا (كان ذلك في الخمسينات) وإنها بقيت في الأردن، لذلك نسمي منطقتنا باسمها. ما كان انذاك بقي هناك. بالنسبة للفلسطيني، الأمر مختلف. أعرف، مثلاً، أن ما يربط بين باقة الغربية وباقة الشرقية ليس الأسماء فحسب، بل الشارع كذلك. والحدود التي لم تعد موجودة.

| بالمناسبة، هل تعرف أن قسماً من بيوت «برديس حنه» و «كركور» مقام على أراضي باقة الغربية؟

|| لا أعرف! ليست هذه هي النقطة الآن. إذا كنت راغباً بالحديث في السياسة معي، فتلك مسألة أخرى.

| كله سياسة يا اسحاق. حتى الشعر الذي تكتبه! هل تنكر؟

|| لا أعرف. مع ذلك فإنني أجيبك. وأقول مجدداً إن كل من فكر بدولتين بالفعل لا بد أن يدرك أنه إزاء مسألة راديكالية بالفعل. كان هناك من قال منذ البداية إنه لا راديكالية ولا يحزنون، وإنه الحل الأفضل. لكن الحقيقة أنه في أساس مفهوم الدولتين يوجد تصور راديكالي جداً، يرى بوجوب إخلاء مستوطنات، ويتوجه للواقع بمصطلحات راديكالية. لسنا إزاء عملية ماكياج.

| هل تنتقد بنفس النسبة الفلسطينيين الذين يتحدثون عن دولتين؟

|| سأقول لك الحقيقة: لا أملك أي نوع من النقد لأي فلسطيني يسعى لامتلاك هويته، ويقول لك: «أعطني هويتي، لينتهي كل شيء». لا أعرف ما الذي يشعر به. إذا كان يعتقد بأن الدولة هي الهوية، ليكن! أتدري؟ لو قالوا لي: رام اللّه بدون احتلال، ولكنها مغلقة من جميع الجهات بحرس الحدود والمستوطنين وغير ذلك هي أفضل، فسأصدقهم! سأقبل رام اللّه بدون احتلال بهذا الوضع على رام اللّه محتلة. حتى لو كانت مطوقة.

| هناك تنويه شبه أوتوماتيكي لدى فلسطينيين كثيرين بالوجه العنصري من حديث الإسرائيليين عن دولة فلسطينية. أحياناً يكونون محقين، عندما يقرأون شخصاً بارزاً في اليسار الصهيوني مثل ابراهام ب. يهوشع..

|| يهوشع هو عنصري بنظري. لعل القومية الإسرائيلية بكافة ألوانها (ولا حاجة لأن أسمي الصهيونية باسمها هنا كي لا أثير أحداً) تفضل التعايش مع مصطلح الفصل، لأنه سيترتب على هذه الحالة أن يعيش اليهود في دولة إسرائيل، والفلسطينيون في دولة فلسطين. والسؤال هو: وماذا مع المليون الفلسطيني في إسرائيل؟ هذا هو السبب الذي لا يجعلني اوافق على هذا الموقف. فهو لا يهمني أساساً. فالصراع بين إسرائيل وفلسطين سياسي وحاد بمستوى صراع بين دولتين. يبدو أن فكرة الدولتين تعتبر حلاً له، وإلا، فإنني أخشى أن نعيش في وضع أشبه بجنوب افريقيا في زمن الأبرتهايد، في المائة عام القادمة من الصراع. كل شيء يؤدي إلى ذلك. ولكن، إذا سألتني ماذا سيكون في داخل دولة إسرائيل، هذه الدولة ذات الحجم الأصغر الذي أريده، فإنني لا أصل إلى غاية. في هذه النقطة لا ألتقي بمثقفي اليسار الصهيوني، لذلك يقاطعونني.

| هل فكرت بهذه المقاطعة؟

|| القضية الأهم بنظري أن رجل اليسار الإسرائيلي، الديموقراطي الإسرائيلي إذا شئت، الذي يعتقد أن على دولة إسرائيل أن تكون دولة لكل مواطنيها، وأن امتحان الديمقراطية في أن تكون طريقة لجميع مواطنيها.. هذه الحقيقة البسيطة من أيام الثورة الفرنسية، تبدو شيئاً متطرفاً في إسرائيل اليوم. هذا هو مقياس التطرف الإسرائيلي. أن تكون متطرفاً في إسرائيل بالمفهوم الفكري. هذا هو النمط السائد الآن. إذا كان كل من يؤيد دولة لكل مواطنيها متطرفاً.. فماذا بقي لأقول؟ ذات مرة قالت لي طالبة جامعية يهودية، خلال محاضرة لي ضمن مساق المسرح: كيف أمكن تسمية الديمقراطيات الغربية بأنها كذلك، بينما نجد أنها في مطالع القرن عارضت حق النساء في التصويت؟ كيف يمكن تسمية ذلك بالديمقراطية؟ دعوتها إلى أن تتأمل حالنا، وماذا سيكون بعد خمسين – ستين عاماً، عندما ستكون دولة إسرائيل حقاً دولة كل مواطنيها، وليس دولة يهودها فقط، كيف ستكون النظرة في تلك الايام إلى الديمقراطية التي لم تعترف بالعرب الذين يعيشون فيها بأنهم متساوون في الحقوق، ولا تزال ترفض الإعتراف؟ إنها ستكون مثل نظرتك الآن إلى حرمان «الديمقراطيات الغربية» النساء من التصويت في مطالع القرن! كنت ملزماً بأن أكون متفائلاً في ردي كأستاذ في الجامعة، لكن الحقيقة أنك لو أخذت من ناحية معينة شكل التفكير الإنساني بشكل عام لتوصلت إلى أننا نسير – على الصعيد الفكري، لا على صعيد الأنظمة القمعية المتزايدة – نحو عالم فيه لن تتوفر الإجابة عن السؤال عمن هو السيد هنا، بدون توفير الاجابة على مصطلح الشعب على الدوام. لو فكرنا قليلاً، كيف سينظر أبناؤنا وأحفادنا بعد عشرات السنين إلى اهتمامنا المتواصل بإحصاء عدد المواليد العرب واليهود الجدد في الجليل أو سخنين أو كرميئيل. لا بد أن نخجل بذلك!

| عند الحديث عن «الخطر الديموغرافي» يرد ذكر السياج القاطع بين العرب واليهود في هذه البلاد.

|| هذا مثل على ذلك، لكنه جزء من الحكاية، وليس كلها. لا بد للمؤرخ أن يقوم ببعض الجهد ليصير ملماً بتفاصيلها. قبل الهجرة الكبرى من روسيا، ووصول مليون يهودي اضافي إلى هنا، كانت دولة إسرائيل أقل انكشافاً فيما يخص نواياها الاستيطانية. ونوايا الإلحاق. حتى أن اتفاقية أوسلو جاءت نتيجة التفكير بأننا لا نملك ما يكفي من اليهود لنحافظ على أغلبية يهودية هنا، لذلك يجب التقسيم.

| وعندما زاد عدد اليهود هنا قلَّ «الحماس» اليهودي لأوسلو؟

|| عموماً، المسألة تبدو كما لو كانت جميع الأوراق بأيد إسرائيلية. لا يكفي أن الفلسطينيين لم يجيئوا إلى المباحثات في أوسلو وهم مستعدون لمفاوضة الإسرائيليين (وهو ما توسع فيه إدوارد سعيد بصورة جيدة في كتابه عن غزة واريحا)، ولا يكفي أنهم جاءوا على قدر كبير من السذاجة لالتقاء الإسرائيليين الذين جاءوا مزودين بمعرفة وسخرية كبيرتين. ففي ذلك ما يفسر كيف أن إسرائيل لم تحترم أية اتفاقية حتى اليوم. منذ التوقيع على أوسلو لم تنفذ إسرائيل أية اتفاقية بكاملها، ولا حتى بجزئيتها! وإذا فعلت ذلك بهذا الشكل، فإن ذلك يتم بعد استخراج عصارة الفلسطينيين، لقاء سنتمتر هنا وأخر هناك. بينما يظهر في هذه الأثناء المزيد من المستوطنات. الإسرائيلي في داخل هذه الثقافة لا يعدو كونه الفرية الكبرى للثقافة أو الحضارة الغربية! ما زلنا نؤمن أننا المحقون وأننا الديمقراطيون، لذلك مسموح لنا أن نفعل ما نفعل. داخل سياق ثقافي كهذا، فإن القدرة على الاقتراب من الماضي وطلب الغفران منه، وقول ما فعلناه، ووضعه على الطاولة – أبعد بكثير الآن مما كان سابقاً. لذلك أقول لك إننا شهدنا لحظة تاريخية معينة أطل فيها المؤرخون الجدد بطروحاتهم. بعد التوقيع على أوسلو في سنة ٩٣ شهدنا حماساً كبيراً هنا، واستعدادا للذهاب إلى كل شيء، وذلك قبل عمليات «حماس» الانتحارية، التي أسهمت بدورها في إحداث التراجع الكبير.

| بإمكان الفلسطينيين أن يقولوا دائماً إنهم عانوا أكثر منكم جراء هذه العمليات...

|| أنا لا أتحدث عن هذا الجانب، بل أعني ما أُضيع من فرصة كبيرة بعد أوسلو، رغم محدوديتها. الفرصة الضائعة المتصلة بأن حكامنا لم يكونوا على علم بالعدد الكبير من الناس الذين كانوا مستعدين للمضي في ذلك. اسألوا استطلاعات الرأي العام، فقد دلت على أن الأغلبية أيدت قيام دولة فلسطينية. دفنوا ذلك كله تحت بحر من الجرائد والكلمات والدم والجنازات والمصالح الامريكية، وربما الفلسطينية المحلية أو الإسرائيلية المحلية التي لا أفهمها ولا أدري لماذا.

| في مقالك عن «اللغة الممزقة»، المنشور في العام ٩٤، تتحدث عن فصام هو في سياقه العام فصام قومي، إذا جاز التعبير، ومؤكد أنه فصام ثقافي في هذا السياق الخاص. هل أسهم الأدب أو الثقافة في صنع ذلك؟ تتحدث هناك عن دور الأدب في التعاون في موضوع السكوت عما جرى، ليس على الصعيد الجمالي، وإنما بالثرثرة عن «جمال الصمت». ماذا تقصد بذلك؟

|| كبرت داخل ثقافة ثرثارة، استخفت بالمفكر، في الوقت الذي كانت تقوم فيه بتقديسه من الجانب الآخر. استخفت به عندما تحدث أكثر مما يجب أن يفعل، وقدّرته عندما تحدث بالضبط عما أرادوه أن يتحدث عنه.

| هكذا كان الترمن لديكم، مثلاً..

|| نتان الترمن نموذج ممتاز على ذلك. حتى هذا الشخص ضم في داخله تناقضات جوهرية بين صهيونيته وانسانيته. عندما جرت تفتيشات عنيفة في المثلث في أيام الحكم العسكري في الستينات، لم يكذب، فقد عجز عن التزام الصمت، وكتب ضد ذلك. عندما وقعت الحرب في لبنان ٨٢، كنت مرتعباً. كان الرعب الحقيقي عندي في الأسابيع الثلاثة الأولى من حرب لبنان. كنت هنا في تل أبيب، وحاولت تنظيم حملات احتجاج عام على الحرب. كانت تلك الأحاسيس ناجمة عن معرفة الجميع بقرب وقوع الحرب. قبل موعدها الحقيقي بعام كامل. وعلى رغم المعارضة الواسعة لها قبل وقوعها في صفوف اليسار والمجتمع العريض، فقد كنا وحدنا في الأسابيع الثلاثة الأولى على اندلاعها. لم يرغب احد بالخروج ضد الحرب، لذلك لم أستطع فهم قوة الكذب هذه. أتذكر كيف وقفنا وحدنا قبالة بيت سوكولوف في الثامن من حزيران، وتلقينا الضربات المميتة. توسلنا إلى «سلام الآن» أن تأتي للتظاهر. فلم ينفع. بقيت مع هذا الاحباط سنين طويلة، ولم أفهم سر سلوكنا بعد أن عرفنا بقرب وقوع الحرب، عندما كنا ضدها قبل انفلاتها، وخرسنا بعد أن سال الدم من جديد. لم أتمكن من استيعاب ذلك أخلاقياً، أبداً.

| وعلى الصعيد الخاص، لا العام، كيف تقيم ذلك؟

|| لو كان عليّ كتابة تاريخ معارضة هذه الحرب في البلاد، أو لو كان علي أن أكتب بعد خمسين عاماً تاريخ هذه الحرب، لقلت لنفسي إن ثلاثة أسابيع من حياة حركة سلام في حرب متواصلة منذ عشرات السنين، ليست بالوقت الكثير. لو نظرت إلى نفسي كإنسان جابه بشرا التزموا الصمت رغم انهم عرفوا ما يحدث، لغضبت كثيراً. أما لو نظرت لذلك ضمن السياق التاريخي العام، فلن أنسى هذا السلوك، ولا ما كتبته الصحف عن الحرب لدى اندلاعها، من جهة أخرى أخذ الاحتجاج يتحول إلى احتجاج جماهيري بعد ثلاثة أسابيع. تجندت الانتلجنسيا والمفكرون، بعد مضي بعض الوقت. وعندما أنظر إلى ذلك اليوم أقول لنفسي: لقد كلفنا ذلك دماً، ودموعاً، وأعصاباً – لا أكثر من ذلك، لأنني لم أكن في هذه الحرب لا ضحيةً ولا قاتلاً. وبنظرة للوراء اليوم، فإنني أتيقن من وجود ما يسمى بـ«حركة سلام إسرائيل بصورتها الاوسع». نشأ شيء ما مع الوقت، توجد لكل سلطة إسرائيلية اليوم مشاكل معه. أما كيف تعلم الغرب مجابهة حركات السلام، فتلك قصة أخرى. فهو ببساطة تعلم كيف يصنع الحروب، كما فعل بالعراقيين والصرب وكما سيفعل الآن باللبنانيين من دون أن يدفع ثمناً غالياً لذلك. ولكنها حكاية أخرى، كما أسلفت!

| في كتابك «نكتبك ايها الوطن» (١٩٩٥) لا تتحدث عن الصمت حيال جرائم الحرب في لبنان ٨٢، بل الصمت التاريخي على فظائع النكبة وما جرى في أعقابها من ويلات

للفلسطينيين في العام ٤٨ ..

|| أعتقد أن الصمت جزء من مشروع صهيوني كبير جداً حاولت وصفه بالتفصيل في كتابي المذكور. كنت عندما شرعت بالكتابة أسأل نفسي: كيف يمكن لأناس مولودين في بلاد تغيرت سياسياً وديموغرافياً وجغرافياً بسرعة فائقة، أن ينجحوا بنسيان ما حدث؟ كيف نجحت ثقافة بكاملها أن تنسى؟ مرت هذه البلاد بتغييرات تتطلب أن نكتبها يومياً، بواسطة مختلف أنواع البشر. لكن المأساة أن أحداً لا يكتب ذلك. لا يوجد من يكتب، لا اليهود ولا العرب. سأعطيك مثلاً بسيطاً: هذه بلاد ضيقة وطويلة، تعيش على ساحل البحر. مرة واحدة في الأسبوع أعبر من الفريديس، الساحلية كما تعلم. أشتري السمك من الصيادين هناك. في كل مرة أمر من هناك أحاول أن أسترجع لنفسي تاريخ الأكل في بلاد كلها على الساحل. أين يباع السمك؟ أين اختفى السمك من قائمة أطعمتها؟ يمكن أن نبدأ بفحص الأسباب. فاليهود الذين قدموا إلى هنا يأكلون السمك، والمغاربة أيضاً. يشترون السمك المجمد في السوبرماركت، مستورداً من اوروبا. سمك التونه الاوروبي المجمد. لو جاء مؤرخ لتاريخ الطعام، وقام بتحليل أو وصف قائمة الأطعمة هنا. لتوصل إلى نفس التساؤل. منذ آلاف السنين والبشر يعيشون فوق قطعة الأرض هذه. تغير الغزاة، وتغير المحتلون، وجاءت مختلف الأمم، بوسنيون، مماليك، سودانيون، مصريون، وجاءت عائلات بكاملها من مختلف اصقاع العالم.. من كل مكان. حاول أن ترى ذلك باعتباره جزءاً من تنقل الشعوب الكبير والقاسي الذي كان هنا في الشرق الاوسط. كلهم أكلوا السمك. فأين السمك؟ لا سمك! لماذا؟ لانه تم طرد جميع قرى الصيادين التي انتشرت على امتداد شواطىء البلاد، من غزة إلى صور. هذه نقطة أولى. طردوا بموجب أوامر بالطرد. بقي عدد من الصيادين في يافا وعكا. فقد صدرت أوامر بطرد جميع القرى العربية الساحلية. وليس ذلك فقط، بل كان هناك منع صريح من العودة. ولم يكن ذلك بدون ثمن. خذ قصة الطنطورة، التي يتم الكشف عنها هذه الأيام. من جهة اخرى، فقد وقع خطأ يسمى «جسر الزرقاء». عندما أبقوها في مكانها على الساحل الأوسط.

| كان هناك «خطأ» آخر تم «اصلاحه» في مطلع السبعينات، عندما تم اخلاء سكان قرية المفجر الساحلية غربي الخضيرة، لإقامة محطة توليد الكهرباء هناك.

|| كنا نطلق عليهم لقب البدو. أين هم اليوم؟

| وزعوا على باقة الغربية وبعض قرى ومدن المثلث. كانت تلك مأساة متكاملة بجميع الآراء.

|| لننظر لذلك للحظة، خارج سياق التاريخ القومي، متركزين فيه باعتباره تاريخاً لبشر عاديين كانوا يبحثون عن الطعام.. وكيف تم تغيير عادات الأكل لدى سكان هذه البلاد. وبأثر من ذلك سألنا: ماذا يأكل البشر الآن، بالقياس إلى ما كان من قبل؟ في الخمسينات أخذوا اليهود الشرقيين وعلموهم الطبخ. بعد أن طالبوهم بشطب ذاكرتهم. حتى أنهم لم يتصرفوا حيالهم كمن يمتلكون مثل هذه الذاكرة.

| كان ذلك شرطاً لقبولهم في المجتمع الجديد..

|| لا أعرف! هناك حاجة لإثبات ذلك. المهم أنهم علموهم وصفات لأطعمة من أوكرانيا وبولونيا. كانوا يهود من كردستان والعراق واليمن، طلب منهم إعداد أطعمة شرق اوروبية على سبيل المثال. لم يعلموهم إعداد «البُرغل» مثلاً.. لذلك أعود وأقول: مهما كانت الزاوية التي تنظر منها إلى تاريخ هذه البلاد، شرط أن تكون بعيداً عن السياسة والأيديولوجيا، ومتركزاً في كيفية حياة الناس البسطاء فيها، لا بد أن تتوصل إلى أن من وقف وراء ذلك كانت لديه مخاوف كبيرة من الشرق. عندما أنظر من شباك بيتي فأرى كفر قاسم في الشرق، أفهم كل شيء. إذا لم تكن راغباً بالسفر في يوم السبت لشراء الحلويات من نابلس وعبور الضفة الفلسطينية، يمكنك أن تستعيض عنها بكفر قاسم. فقط بعد مجيئك إلى هناك ورؤية جميع اليهود الشرقيين الجالسين في صباحات السبت في كفر قاسم، يمكنك أن تتوصل إلى الحقيقة: إذا تابعت حوارهم التجاري، وحاولت الرجوع قليلاً إلى الوراء، إلى الخمسينات، وفكرت في ما فعله «الاباء المؤسسون» – كيف قاموا بجلب يهود شرقيين إلى هنا من جهة، وطردوا العرب الشرقيين من الجانب الآخر، لتيقنت بأن كل شيء كان مخططاً: خططوا وضع حاجز كبير مجازي أو حقيقي بين اليهود والشرق. وفي ذلك كانت هناك أهمية للدين على سبيل المثال، لتذكير اليهود الشرقيين بأنهم متدينون، حتى لو كانت غالبيتهم غير متدينة. لم يكن يهود العراق متدينين، ولا يهود مصر. تأمل تاريخ هذه البلاد، لتتوصل بنفسك إلى أننا إزاء حكاية مرسومة من الأعلى، وإزاء مصير يحتم عليك الوقوف في مجابهة القوموية الباعثة للفرقة والنزاع. تصور كيف جلبوا في الخمسينات مليون يهودي من البلاد العربية. لندع طرد الفلسطينيين جانباً للحظة. فقد كان في عرفهم أنهم يقومون ببناء أمّة في بلاد اعتزموا كتابة تاريخ جديد لها. وللقيام بذلك فإن أقرب الأشياء إلى البداهة أن تضع أولئك مكان هؤلاء. لا بجانبهم. لأنه لو وضعتهم بجانبهم لربما أصبحت أقلية. السطر الأ خير فيما يسمى بناء القوموية اليهودية الجديدة – أي: الصهيونية بمفهومها الكلاسيكي – إننا كنا على الدوام إزاء جبهتين شهدتا حرب الغرب ضد الشرق، باسم الغرب في مجابهة الشرق، من الداخل، ومن الخارج أيضاً. كانت هناك حاجة داخلية لأن يقال باستمرار لليهود الشرقيين لا بد أن «تتغربوا» وتكونوا جزءاً من دولة عصرية؛ هذه هي الخطة. وهي عملية لم تتوقف؛ أما الحاجة الخارجية فقد لامست النظرة إلى العرب: نحن جزء من الغرب، ولسنا معكم. لم تكن حساباتهم مخطئة، بنظرة تاريخية. وفي جرد الحساب التاريخي فإن بن غوريون وجماعته «حسبوها مزبوط»! فكروا أن الأمريكان هم الطرف المنتصر، فانضموا إلى هذا الجانب. جندت هذه الجبهة المزدوجة المثقفين إلى صفوفها باستمرار. معظم المثقفين هم خدم لدى السلطة. من الوهم أن نقول أن المثقف الآن لدينا حر. لا يوجد شيء من هذا القبيل. هناك قلة قليلة من المثقفين الحقيقيين المستقلين بالفعل. الراعي وراء غنماته أكثر استقلالية من المثقف.

| تتحدث عن المثقف الإسرائيلي؟

|| عنيت المثقفين في كل مكان. لا يوجد فرق في ذلك. أنظر ما حدث أثناء حرب «الناتو» المؤلمة في الصرب. ماذا فعل المثقفون في العالم؟ لم يفتح أحد ثغره احتجاجاً، بل العكس – أيدوا الحرب! أوجدوا القصص وحولوها إلى حقائق.

| أتعرف ماذا يخيفني حقاً من كل هذه الحكاية؟ أن العالم، وبقرارات تتمتع ظاهرياً بشرعية دولية، يمكن أن يؤيد تنفيذ فكرة «الترانسفير»، كما حدث في البوسنه والهرسك، ليصير الناس لاجئين في أوطانهم، ويقال بالتالي أنه «حل عادل». يخيفني هذا المنطق هنا، في فلسطين! بعض قادة الصهيونية لا يستبعد حتى الآن فكرة استبدال «كريات أربع» بشفاعمرو أو الناصرة!

|| الترانسفير لم يحدث هناك فقط. ففي يوغسلافيا اليوم يعيش ملايين اللاجئين. وعندنا؟ ماذا حدث في الـ ٤٩ في المثلث؟

| هل التاريخ يكرر نفسه، أم أنه «قصر نظر حضاري»، إذا أمكن القول؟!

|| لا اريد اطلاق تصريحات لا يمكنني إسنادها. ما أود التأكيد عليه أن المثقفين المنخرسين بنظري أقل استقلالاً من راعي القطيع الذي يطعم قطيعهُ الأعشاب الجبلية، التي لا تطالها سطوة القانون، فهي موجودة، والتهام الماشية لها «أمر قانوني» (!!) حتى أن الراعي بقطيعه يقطع الحدود من دون أن يجعل من ذلك قضية! أما المثقف فيعمل لصالح منظومة أيديو لوجية متطورة للغاية. وذلك صحيح في كل مكان أولاً، وصحيح جداً جداً في دولة إسرائيل. تسألني: هل ذلك أكثر واقعية في إسرائيل، وأقول لك: أنت على حق. لماذا؟ لأنها دولة تجميعية جداً من ناحية ثقافية. ولديها مصلحة كبيرة جداً في انتاج الوعي: وعي عام لأناس يعيشون في دولة يُقال إنها ذات ماض عريض، لكن ماضيها الحقيقي شُطب؛ دولة يُقال إن للناس فيها ماض كبيراً، لكنه «مفبرك»، مشترك وغير مشترك، مهشم ولكنه متواصل ظاهرياً؛ بكلمات أُخرى: ما تفعله دولة إسرائيل بواسطة مثقفيها أنها تهتم بألا يتوقفوا عن الكلام. دائماً كانت غالبية المثقفين متعاونة مع النظام الذي تعيش في داخله. قلة قليلة فقط منهم كانت تبدي معارضة للسلطة، وهذه بنظري أهم نقطة.

| هل تشعر بالوحدة في ذلك؟ هل بقيت غاية اليوم لمواصلة تقمص وتطوير شخصية المثقف المناضل الطليعي، في واقع كهذا الذي تتحدث عنه؟

|| لا توجد شخصية كهذه اليوم، لذلك لا أشعر بالعزلة مثلاً في محيطي الثقافي.

| كيف تقيس ذلك؟ ما هي مواصفات المثقف المثالي لديك؟

|| في الموقف من الآخر مثلاً. أعتقد أن أحد أبرز مثالب المجتمع العربي في إسرائيل مثلاً أنه مر بكل هذه المعاناة والإنكار والتجاهل من جانب اليهود، ومع ذلك فإن العرب إذا استمعوا مرة إلى كلمة طيبة من يهودي طيب، فسرعان ما يطلقون عليه لقب الشجاع. كل ذلك خاضع لمصلحة الأطراف اللاعبة على الساحة؛ هناك أحزاب وحركات سياسية

عربية تتولى عملية توزيع مثل هذه الألقاب: «تقدمي، شُجاع، مُلتزم، مُناضل، يساري إلخ»... لكن ذلك سياسة كما تعلم. لكنني أتحدث عن مجتمع لا توجد فيه سوى قلة قليلة من الناس المستعدين لسماع ما يجري بداخله، أو قول كلمة واحدة عن ذلك. كل شخص يُبدي استعداداً لقول شيء إنساني، سرعان ما يصير «نبي الحقيقة الكبير». ليس كل من يقول إنه من العار أن يعيش العرب في إسرائيل بهذا المستوى المتدني يصبح نبياً. لا بدّ من قول هذه الحقيقة البسيطة، التي لن تجد أشخاصاً كثيرين ممن هم على استعداد لملاحقتها. كم لايبوڤتش مر من هنا؟

| هل تعيش كمن يحس بأنه فوّت فرصة ما، أضاع شيئاً هنا؟ هل أنت خائب الأمل؟ وهل تشعر كمن أضاع «اندلساً» هنا، بعد كل هذه السنين من الصراع؟

|| الخيبة تأتي دائماً حسب المفهوم الشخصي، وفي السياق الذاتي. أشعر كذلك، لأنني سلخت قسماً كبيراً من عمري في نضال كان يجب أن يكون مفهوماً ضمناً لدى كل واحد منا – ضد الاحتلال، ومن أجل السلام الإسرائيلي الفلسطيني. عندما أتطلع إلى الوراء اليوم، وقد تجاوزت الخمسين، أجدُني لا أملك استقراراً مهنياً حتى الآن، ولديّ رغبة جارفة للتفرغ لكتابة الأدب.. ولا أحصلَ على ذلك. أما إذا قارنت نفسي بكاتب فلسطيني يمكث في معسكر اعتقال عاما أو ثلاثة أو أكثر، عندها سأشعر بأنني في وضع جيد. وإذا قارنت نفسي بأي كاتب إسرائيلي حصل على كل الامتيازات السلطوية، لن أحس بالراحة! من جانب آخر، لم يرد الفلسطينيون الجميل لتلك الأقلية اليهودية الصغيرة المؤيدة للقضية الفلسطينية، التي ننتمي نحن إليها. صحيح أنه جرت دائماً محاولات لإقامة علاقات معنا، لكنه في اللحظة التي لا تتحقق فيها النتائج المرجوة، فمن سيتذكر؟ هل يتذكر أحد في الدولة الفلسطينية أحداً من أولئك الذين خاضوا مجابهات مع السلطة واعتقلوا أو سجنوا، واشتركوا في المظاهرات في الشارع؟ هل يتذكر أحد الجهود الكبيرة التي بذلناها هنا؟ مرة، لم يكن هنا شخص اسمه يوسي بيلين، أو شمعون بيريس. كنا نحن! هل يتذكرنا أحد في الدولة الفلسطينية؟ لم يبد أحد اهتماماً في حينه بالإسرائيليين لأنهم كانوا جميعاً نسيجاً واحداً، لا فرق بين «يهودي» أو «صهيوني». هذه هي وجهة النظر البائسة التي سيطرت في السبعينات، والتي عادت بالضرر على المسألة الفلسطينية. بعد ذلك حدث العكس. كأنهم يقولون لنا: فشلتم في صنع شيء جيد، لذلك نفضل عاموس عوز أو عاموس كينان مثلاً عليكم. لكن الحقيقة أن عاموس عوز لا يذهب إلى رام اللّه ليقف على طبيعة الأشياء عن قرب، خسارة أنه لا يفعل. هذا نوع من تفويت الفرص مثلاً. ما يؤلم أن كل من بذل جهداً شاقاً لتتحقّق احلامنا بـ«أندلس» هنا، يقف الآن جانباً، ومن يجني الثمار هم آخرون. أنا لا أتذمر على الصعيد الشخصي.

| المنسيون الذين تتحدث عنهم لم ينسوا في الجانب الفلسطيني فقط، بل في جانبك أنت أولاً..

|| أنا لا أتحدث عن أطراف، بل دول. لا أتوقع من دولة إسرائيل الصهيونية الاحتلالية

أن تفعل ذلك. لا سبب لديها لترغب بأن تتذكرني كمن عارض احتلالها. أما دولة فلسطين التي ما زال معظمها محتلاً، فهي مطالبة بأن تتذكر من ناضل ضد الاحتلال ومن لم يفعل. وهي لا تفعل ذلك! أخشى أن يكون الفلسطينيون مقصرين في التفكير بصورة صحيحة بالسلام! خذ صورة عصام السرطاوي في الذاكرة الوطنية الفلسطينية. لم يتم انصاف هذا الرجل في الوعي الفلسطيني العام. هذه نفس الحسابات التي يملكها فلسطينيون كثيرون مع هذه الذاكرة. أما حسابي مع الذاكرة الوطنية الإسرائيلية، فهو حساب مختلف. وهو يتلخص – في سياق جرد الحساب في الموضوع الفلسطيني – بجملة واحدة: كل من لا يعرف النظر في الطريقة التي أوجدت التغييب والطمس والانكار، ويتأمل المتغيرات والتطورات، لن يفهم ما حدث هنا أبداً. بالنسبة للفلسطينيين، فإن ما يوجد في ذاكرتهم الوطنية الفلسطينية لا يحتاج «مؤرخاً جديداً» لكي يكتشفه. أما بالنسبة للذاكرة اليهودية فأنت بحاجة إلى بحث أكاديمي أو كتابة فنية لكي تفهم. وذلك يتطلب جهوداً كبيرة، لم يعد أحد يؤديها. فقد عدنا إلى نقطة البداية.

| أين تبدأ جذور هذا التراجع؟

|| التراجع متصل بأشخاص مثل اڤراهام ب. يهوشع، أو بأجهزة مثل جهاز التربية والتعليم الذي لم يتحرك سنتمتراً واحداً عن المكان الذي يقف فيه منذ أكثر من خمسة عقود، وذلك رغم إدخالهم شيئاً ما عن النكبة أو ما حدث في كفر قاسم، رغم أنه لا يكاد يذكر. وهو لا يُضاهي حجم التاريخ الذي نعيشه.

| لديكم عدد كبير من الكتاب ممن زعموا انهم يتصدون في إبداعهم لمهمة كتابة تاريخ هذه البلاد من جديد. روايات أ. ب. يهوشع الأخيرة مثلاً.. «السيد ماني»؛ «مولخو»؛ «العودة من الهند» إلخ. كأنهم يقولون: انتهينا من ترسيخ كيان «اليهودي الجديد» هنا، وها قد حان أوان «البحث إلى الجذور».

|| هؤلاء أكبر الكذابين عندنا. أفضل مثال على ذلك هو يهوشع نفسه. خذ روايته «السيد ماني» التي اشرت إليها، فهي تتحدث عن خمس مراحل قرر بنفسه أنها المراحل الحاسمة في تاريخ الشعب اليهودي. ولأمر ما تناسى ما حدث في العام ٤٨. لماذا؟ كيف يمكن لإنسان يزعم أنه يقوم بكتابة تاريخ الهوية اليهودية أن يفكر بأن عام ٨٢ هو محطة مهمة، لم يسبقها سوى الكارثة؟ لم يقع شيء بين هذين التاريخين! هل يمكن؟ أنت كصهيوني ملزم بتذكر ما حدث في عام ٤٨! مشكلته مع هذا العام أنه «سفارادي» (من اليهود الشرقيين). وهو في ذلك العام قام بالهجرة على رغم أنه مولود في القدس. كان والده خبيراً بشؤون الإسلام، وقد ألّف أفضل كتاب عن تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، صدر بثلاثة مجلدات باللغة العربية. يبدو أن والده أكثر حكمة منه! مشاكل ا. ب. يهوشع مع «الكولونيا اليهودية البيضاء» – يهود القدس مثلاً – إنه اضطر لأن يخفي هجرته وأن يطمس معالمها. فهو مهاجر. كل من لم يكن جزءاً من اليهود الاشكناز الذين سيطروا هنا آنذاك، كان عليه أن يقوم بالهجرة إلى داخل الدولة. هذا ما حدث جزئياً مع

العرب في إسرائيل: كانوا ملزمين بالهجرة إلى داخل الوطن. فقد كانوا سكان فلسطين الانتدابية.

| من يعبر مثل هذه الوقائع لا بد أن يتحرك في اتجاه معاكس...

|| يهوشع ليس شجاعاً، لذلك فهو لا يهمني. هو ما زال قابعاً داخل دوغماطيته. ما هو مهم في الأدب أن يتم التوجه إلى كتاب لا يفكرون بأن لهم دوراً أيديولوجياً، في مثل هذه الحالة يمكنني تغيير رأيهم. هناك كتاب أقل أيديولوجية منه لكنهم أكثر اهمية.

| في عهد ما تسمونه «ما بعد الصهيونية» أو «ما بعد الحداثة» نشهد تراجعاً عن الشراكة أو الاحساس بالشراكة في بناء «المشروع الثقافي الصهيوني» هنا، لصالح التركيز على الجوانب الفردية في شخصية ونتاج المبدع.

|| في الخمسينات أيضاً قالوا إنهم يبحثون عن ذواتهم. اقرأ ما قاله «بولي» وعوز وامثالهما عن أنفسهم، بأنهم يبحثون عن الوحدانية فيما يكتبون. مع ذلك، هناك فرق بين ما كتب آنذاك ويكتب اليوم.

| اختفت رائحة المكان مما تكتبونه اليوم.. هذه حقيقة أدبية!

|| لست واثقاً من ذلك. إذا قرأت نتاج اتجار كريت الأدبي (وهو أديب شاب ولافت للنظر، في العشرينات من عمره، يقول لاؤور إنه ليس مهماً بنظره) وتوصيفاته لتل ابيب لربما حصلت على العكس.

| هذا جيل مختلف عن «جيل الدولة»، فهو على الأقل لا يتصرف كمن يحمل على كاهله أعباء وأوزار الصهيونية كلها...

|| هكذا أفضل! بذلك يبدأ الخلاص! لأنني أعتقد أن القومية لعنة. أية قومية. كل من يريد دولة وقومية وضريبة دخل ومصلحة سجون وشرطة وغير ذلك، حرّ في ذلك. أعتقد أن أفضل نموذج على فهم مخاطر القومية نجده في كتابات الراحل إميل حبيبي. أنظر ماذا اختار ليكتب وليجعله موضوعاً في أدب فلسطيني رفيع كان يؤسّس له هنا. لم يبتعد أبداً عن المكان الذي عرفه، لأنه عرف أن التطرف القومي أمر مجرد للغاية، وأنه يجب أن تكون كاذباً لتصير قومياً. لا بد أن تكون سياسياً أو خطيباً لتكون قومياً أو قومياً. ثمة شيء لافت للنظر في كتابات هذا الرجل، إنه لم يذهب أبداً أبعد من الطنطورة في الجنوب، أو الزيب في الشمال في أدبه. أدب حبيبي محصور في بقعة لا تزيد عن سفر ساعة واحدة! ثم، ما الذي أمكن لإميل حبيبي أن يقوله عن الذاكرة القومية، غير ما يعرفه بنفسه؟ لا رائحة لأي مكان جنوبي الطنطورة عنده. هي أبعد المواقع جنوباً في أدبه. اقرأ «المتشائل». كذلك روايته «اخطيّه»، التي تدور في محيط ربع ساعة من حيفا، في كل الاتجاهات. من جهة ثانية، إذا كان شاعر مثل محمود درويش راغباً في أن يكتب عن الشعب الفلسطيني في كل مكان – هذا الشعب الذي لا يملك مكاناً واحداً – فسنجده ملزماً بأن يكتب أشعاراً مجازية على الغالب. إميل حبيبي فعل العكس تماماً في أدبه. أتذكر رسالة محمود درويش الجميلة إلى سميح القاسم في «الرسائل»، وفيها يقتبس من رسالة

وصلته من إميل حبيبي (يقول لاؤور انه أعرب عن رغبته ـ في مقال كتبه عن «الرسائل» بعد صدوره بالعبرية ـ في قراءة كتاب مراسلات بين إميل حبيبي ومحمود درويش) يقول فيها حبيبي إنه شاهد شخصاً يسير في اتجاه معاكس لحركة السير، حاملاً الغيتار، دون أن يحدد هل هو يهودي أم عربي أم مسلم أم مسيحي إلخ.. كل ما فعله هذا الشخص المجهول الذي شاهده إميل حبيبي وكتب عنه في رسالته إلى درويش أنه حمل غيتاراً وسار في عكس حركة السير «المجلوطة»، التي يبدأ بها روايته «اخطية». أعرف أن هناك هوة بين انسان مثلي وشاعر فلسطيني من أبناء جيلي، متصلة بمجمل التراجيديا التي صنعتها الكولونيالية الصهيونية، التي كانت في نهاية المطاف سبباً في بنائي الذاتي، بينما نجدها تعود على الفلسطيني بالدمار. صدقني أنني أحاسب نفسي على ذلك يومياً. أما في «حسابي النهائي» الشخصي، فأعتقد أن القوموية شيء تافه، رغم خطورتها على بني البشر، حيث تفرض عليهم الانتماء ليس للمكان الذي يعيشون فيه. مؤكد أننا نعدم رائحة المكان في انتاج الأدباء اليهود الشباب اليوم كما تقول. فهم يعيشون في كيان مجرد، وفي حالة احباط مجرد، وفي داخل لغة فقدت صلتها بالمكان.

| هل بسبب ذلك هي «لغة ممزقة»؟

|| اللغة الممزقة هي لغة ذاكرتنا المستعادة، وقوموياتنا. وهي لغة ترجيعات للذاكرة القومية العامة، وهي تفرض على البشر أن يكونوا غرباء في بلادهم. خذ جارتي عبر الجدار المقابل مثلاً، هي من مواليد لبنان ولكنها مؤيدة لليمين. لو سألتني ما هي الموسيقى التي تستمع إليها باستمرار؟ ليس سوى فيروز، فهي لا تستطيع الانفصال عن ماضيها في بيروت. ما زالت تعيش ذاكرتها يومياً. لذلك من المؤكد أنها ستجد ذات يوم لغة مشتركة مع الفلسطينيين، رغم تأييدها لليمين!

| بسبب فيروز؟

|| ليس ذلك فقط. لا أريد أن أصنع شعاراً، أعتقد أن السبب يعود إلى مقدرتها على التحدث بلغة الماضي والاعتراف بأن السلام سينبت بالفعل داخل بني البشر الأحرار الذين لا ينوؤون تحت أعباء الشحنات التاريخية. لن نقول «إلى الجحيم ما حدث هنا»، لكنني سأقول إنني مدفوع بمسؤوليتي عن كل ذلك، ولكن بلهجة من يدعو انساناً لشرب فنجان قهوة! لا أريد أن أوصي الناس بالاستهتار بما حدث، لأنه لا يمكن أن نستخف به. يجب أن يأتي ذلك من بشر يريدون العيش هنا بشكل طبيعي، لا أن يتم تحميلهم أوزار القلق على مصير التاريخ. لا يمكنني كيهودي – في غير مثل هذه الحالة – أن أفهم ما هي الراديكالية في إسرائيل، من دون أن أصرح برغبتي في حياة طبيعية بلا حروب.. وما يوصيني به حكامنا هو حرب لا تنتهي. في عام ٩٤، عندما كتبت عن التغييب وإنتاج الوعي العام، كان أمامي واقع استيطاني منفلت، لم أقتنع بأنهم ينوون إزالته. نتيجة هذه النوايا، أرى أننا ذاهبون إلى حرب طويلة جداً.

| هل تعتقد أن الأدب الإسرائيلي ساهم ببناء ثقافة ديمقراطية في هذه البلاد؟ مرة

خرج أدباؤكم يعلنون انتماءاتهم السلمية والإنسانية، ويكتشفون البلاد هنا، بنوع من الحنين إلى العدل، ربما كقيمة مطلقة، وليس بالضرورة في سياق الحديث عن واقع الفلسطينيين المؤلم. هكذا فعل عاموس عوز في كتابه «هنا وهناك في أرض إسرائيل»، ودقيد غروسمن في كتابه «الزمن الأصفر».

|| أعتقد أن غروسمن منتوج تجاري أكثر منه أديباً. لا أملك أي نقاش معه. فهو يفاخر بأنه نجح في بناء ديمقراطية هنا، لكنها الديمقراطية التي تعني كل شيء سوى أن تكون قانوناً ثقافياً حضارياً طبيعياً يلزم الجميع مثل الحق في أن تعيش محترماً.. وان تحصل على الاوكسجين.. لذلك لا مكان للمفاخرة بديمقراطية غروسمن.

| لعله يقصد البحث في النظرة إلى المحيط والطبيعة..

|| إذا كان ذلك قصده، فهو يكرر جرائم الماضي. لا يمكن أن تدفع الناس عن الدرج وتسألهم لماذا يسقطون... لا يمكن أن تبصق على رأس شخص معين وتسأله لماذا يتصبّب عرقاً!

| هذا ينقلنا إلى «المؤسسة الأدبية» الهائلة ذات الإمكانيات والموارد الضخمة، التي لا تتولى رعاية الأدب هنا بقدر ما تتولى إنتاجه وربما تفصيله بمقاسها. هناك من يقول مثلاً أن غروسمن صنيعة الناقد ومحرر «المكتبة»، مناحم بيري. هل يتم تسخير الأدب لقوانين السوق، «الريتنغ»، في سبيل ذلك؟

|| لو كانت هذه قوة بيري الحقيقية لكان انساناً ناجحاً جداً! ما هو مؤكد أن جزءاً كبيراً من الثقافة العبرية هنا خاضع لقوانين السوق في الثقافة الغربية. وذلك ليس صحياً، فهو مدمر للشعر والأدب، اذ ماذا سيبقى فعلاً بعد خمسين – ستين عاماً مما هو موجود بالفعل اليوم؟ لا أعرف. ما أعرفه أن الثقافة الغربية اليوم تحب الأدباء الإسرائيليين التقدميين والديمقراطيين الذين يتفاخرون بالديمقراطية ويذهبون للتظاهر قليلاً..

| هل فرضت هذه المؤسسة على غروسمن مثلاً أن يكتب أقل في المواضيع السياسية؟ قبل عشر سنوات كتب «الزمن الأصفر»، وبعدها «حاضرون غائبون»، الذي حاول فيه الدفاع عن بعض جوانب السياسة الصهيونية تجاه العرب في هذه البلاد..

|| غروسمن شاب جيد جاء من الإستخبارات العسكرية، حيث تعلم العربية هناك. وكان رجل استخبارات. وهو يلعب دوراً قد يكون من الصعب عليك أن تميزه من الموقع الذي تقف فيه؛ فهو يواصل تقاليد الأديب الصهيوني الطيب الشاب الإنساني الذي يهتم بقيم الأمة وإنسانيتها. من جهتي، أفضل أديباً فوضوياً لا يهمه شيء من ذلك كله. فالمسألة تخص الأدب وليس الأمة. فالأمة لا تهمني. قد يكون من الصعب شرح ذلك لكاتب فلسطيني، فهو موجود بكليته في مرحلة فيها قوميته هي الشيء المقدس لديه. في الحساب النهائي لا بد أن تتحرر من كافة الحسابات، وفيه أقول أن القومية هي حادث السير الأصعب الذي عرفه تاريخ الجنس البشري.

| لكن القومية ساعدت الأدب العبري على طول الطريق...
|| بالطبع. القومية والأدب العبري صنوان. كلاهما واحد، لا يمكن الفصل بينهما. نحن نتاج مجتمع كولونيالي، فيه أدب السكان الأصليين المولودين هنا غريب عني أكثر من ثقافة «المتروبول» الأوروبي. أعترف بأنني جزء من ذلك، وبأن ذلك جزء من إشكالية حياتنا في هذا المكان.

إسحاق لاؤور :

كالعدم ❋

«يوجد في العالم عدة ألسنة ليس بها
لغة واحدة ليس لها صوت». في جوف الصمت وجوف الجلبة
يمكن أن نغرق – كالمصفاة اختنقت روحي –
صمت أوسع من ضفة نهر مجهولة
ينطرني في أقصى العتمة
أمل حلو، عذب. حقاً،
كيفَ لسانٌ
لا صوت له؟ حقاً،
إني مصنوع من أحرف، أصوات غارقة،
نائية، ومهشمة تهوي في القعر.
, wo bist du, mein sohn?
كيف أسجل هذا الصوت
وبصوت امرأة أو رجل أو زمّارٍ
أو ثُكل؟

(ثدي أمي صوت
راحتا أبي الدافئتان هما الصوت) .

لا أرغب في أن أبقى وحدي،
خاطبتك، يا من تُبنى حين تُخاطَبُ، يا من تعطيني
تغطيةً، عنواناً، إني لست اللغة
المصنوع أنا منها. حين أسير، نسير معاً في الشارع

(نحكي أشياء تافهة، وقصائد موزونة،
بلسان ملائكة نتحدث عن غبطتنا الكبرى..)
نشبك ايدينا يا ولدي، لأكون أنا التابع
لا القائد، والقائد لا التابع،
بلساني أبسط مملكتي فوق أزقة وحل
(أمتلك) امرأة وامرأة وامرأة أخرى (هل
أمكنني أن أخلق كلباً فيخاطب قطة؟)
وإلى أين سأمضي؟ ماذا يبقى من لغة
من دون أنا يُبنى أثناء القول؟

«لو بلسان الناس حكيت، بلسان ملائكة
من دون الحب، لصرت
دويّ نحاسٍ، أو جرساً طنان...»

هذا الشعر سجلٌّ غرق.
حين عكفت على تدوينه عشت
وحيداً، مبتلاً، قذراً، كنت
لساناً منسوخاً في هيئة ذاتي
أتولى خلقك، أخلقني، ثم
أعاود خلقك. («وإذا ما جاءتني الرؤيا
فعرفت جميع الأسرار، ملكت
مفاتيح المعرفة، وصار يقيني أني
أقدر أن أنقل جبلاً من موقعه، لكن
لا حب لديّ، فإني..
عدم إني»).

عفن وصفائح تحت الشباك المفتوح على الساحة
رجل – وسط فناء خال، مهمل – يحرق دوسيهات وثائقه
وبجانب شجر الجوز الممتع يزهر ورد بري،
في جزء منها زهر الليمون العذب وفي الجزء الآخر
قمم يابسة كالصرخة.
(لا شك أن عيشَكِ دوني أسهل)

أكتب أشعاراً في الحب كأني علَقَة.
أكتب في الرغبة، واجدّف بعض الوقت
في ألسنة الناس،
أتنفس ماءً، أبصق دماً. لو جسدي للحرق
أقدمه، لبقيت بلا حب. ليس كذلك:
فرمادٌ لن يبقى بعد الشعر أنا،
لو كانت محرقة تُبقي الشعر.

---

* من مجموعته الشعرية الجديدة التي تحمل عنوان القصيدة أعلاه، الصادرة مطلع العام الجاري عن منشورات «الكيبوتس الموحد» في تل أبيب.